روح التجاوز في تفكير عبد الملك مرتاض البلاغي

د. العربيّ عمّيش
أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها
جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف– الجزائر

أداخل بحث عوالم عبد الملك مرتاض الإبداعية محاولا توظيف ذات الطريقة التي أراه يتبعها هو في تنميق أساليبه التعبيرية، وتوقيع عباراته المتّسقة، ومخاطباته المأثورة عنه، مستكنها قلق التجريب المغامر المسلّط كل المظانّ، وإذا فمنهج هذه القراءة التي أعوّل عليها مدبر من ذات أسلوب الشيخ وحكمته البالغة، لعلني بإتقان حذوه أعبر عن مدى إخلاصي في التتلمذ على أستاذيته الغلاّبة، ولا أجد تبعا لذلك أفضل من المقاربة السيرية التي استفدتها من درسي على أياديه النافعة خلال سنوات التدرج في الأدب العربي بجامعة السانية لمدينة وهران غربية الجزائر خلال الثمانينيات، وكيف لا يستأهل تفكير أستاذ الأساتذة عناية الدّرس به وقد أوتي من فضلي الأدبية والأكاديمية الشّأو البعيد الذي لا يدانى ولا بشامّ، وهو المبدع القائف بفضل ما أوتي من اللياقة والرياضة والسياسة وقوة التنبه لمكامن التوقيعات البلاغية الذاهبة في الحسن كل مذهب، يستجلي توقيعاتها بتوقّد ذكائه، وغزارة نشاطه حدسه.

وإننا لواثقون من أن ذلك المذهب قد قوي لديه وتمتّن وتدعّم متوطّدا حتى تشخّص في النكتة اللطيفة، والأملوحة المدغدغة، والطّرفة الهازّة، ونحسب

أن تمتع عبد الملك مرتاض بجماع هذه الخصال هو الذي قوّى الاعتداد لدرس الأدب الشعبي في حين كان جميع أساتذة الجامعة الجزائرية يتفادون الاضطلاع به، توطّد ذلك لديه فانبرى يدرس بكثير من روح التجاوز والتحديّ الميثولوجيات عند العرب والأطيب في ذلك كله أنه بادر إلى جملة من التطبيقات الفنية والجمالية تمحور أغلبها حول بنية سرد الحدث الحكائي ما يقتدر دارس على إتقانه مثلما أتقنه هو، من حيث لاءم فيه بين التذاذ مقروئية المحكيّ بما يجسده كل خطاب فنّيّ، ويتميز به كلّ إبداع فذّ ويميز كل جنس من الأجناس الأدبية[1]، وكان لفضل جوامع تلك الروح أن أكسبه ناصية سياسة الاستئناس الفني والجمالي في مخاطبة قلوب قرائه الذين هم فعلا في مصاف المريدين له من شدة شغفهم في اتّباع خصوصيته البلاغية تحبيرا وخطابة ومحاورة، ولقد زادني تشريفي الزملاء من أساتذة قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة حسيبة بن بوعلي بمدينة الشلف البهية بتوليتي رئاسة اللجنة العلمية المؤطرة لليوم الدراسي الخاص بأدبية هذا العلم الأشمّ أن أحرص كل الحرص على أن تكون مساهمتي المقاربة هذه عنه لائقة بسمعته الإبداعية، فإن لم أبلغ بها مستوى المجاراة فلأكتفينّ بالفيء إلى ظلال أساليبه التعبيرية الخاصة جدّا المتبطّنة لكثير من علامات التّشعير.

ولم تعويل عبد الملك مرتاض على إتقان القول في فنّ البلاغة إلاّ لأنها عماد اللغة العربية، فالنحو والتصريف والمعجمية والدلالة كلها ذات أصول بلاغية، تتفرد البلاغة عما سواها من علوم العربية وفنونها بكونها تمدّ الناقد بأداة الذوق الذي لا مناص من إعمالها لدى التقييمين الفني والجمالي في تفهم الخطاب الأدبي، والبلاغة التي نعني هنا لا تنحصر في العناوين الدرسية التي

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1989.

نلفيها في البرامج الدراسية سواء أكانت في التعليم الثانوي أم الجامعي[1] لأنّ معظمها التحق بعلوم اللغة العربية من فرط ما تُكُلِّلف فيها من الكلف بمراعاة المعايير العقلية، وكد كان جميع علماء اللغة العربية المبدعين الذين، وإن الذي يقوم شاهدا على رأينا هذا هو إعجابنا الشديد بما صادفناه في كتاب البيان والتبيين للجاحظ والخصائص لابن جنّي وأسرار البلاغة فدلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني من التخريجات الفنية الجمالية التي تسلّط على الوحدات اللغوية والبنيات من أجل الوصول إلى نكتة الإمتاع فيها، يسترشدون بتلك التشعبات المعرفية حتى ينتهي بهم التأمل والتفكير إلى ذوق العناصر اللغوية الدقيقة أصواتا ومقاطع والتي هي الأصل في الانفعال اللغوي حسب ما تأملنا وتفكّرنا وقدّرنا، وعلى أوثق تأويل فإن في المؤلفات البلاغية الأصول المذكورة قد تمّ تغليب الحس والذّوق على المعيارية العقلية لدى هروعهم إلى قياس الإمتاع اللغوي المتصل حسيا بالوازع البلاغيّ، وربما تطوعوا إلى ما لا تمسكه لغة اللغظ فاشتغلوا بالتوسّم وتفارس المتحاضرَيْن[2]، وإن لإعمال الفطن الحسية المختلفة، والمتناهضة على الأسرار الربانية التي لا تقدّر ولا تحصى مناسبة للإحالة على الجوانب الروحية التي تتبطن كل نشاط لغويّ، لذلك فلا عجب أن يصادف الباحث الرابط الأوثق بين مناهج العلماء البلاغيين العرب الذين ذكرنا وبين منهج عبد الملك مرتاض، فقد أهله ذكاؤه واتقاد حسه إلى التمثّل الضّمني لتلك المناهج حتى صار فعلها محركا ضمنيا لهويته الإبداعية،

(1)- يتسق في تفكير عبد الملك مرتاض موقفه المعارض لصرامة البرامج التعلمية والمناهج الدرسية حتى يبلغ به التبرم منها والانتقاص من جدواها أن يراها هي التي قتلت الدوق البلاغي، ينظر، نظرية البلاغة، ص: 67.

(2)- ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة بيروت لبنان، ص: 16.

تستوي مناهجهم جميعا في النسق الواحد على الرغم من تباين التجايل فيما بينهم هذا القريب منا وأولئك الغابرون.

ويبدو أن عبد الملك مرتاض قد اتّسق له الإلمام بالمكونات المرجعية للنزوع البلاغي العربي، فالحرية هي نبض كل تفكير في مضمارها، ووازع كل تصوير أو توقيع، ليس يحدّ متعاطيها حدّ، ولا يعوّقه التزام، والأعراب الذين هم افترعوا أوليات هذا الفنّ لا يلتزمون بأيّ قياس يفسد مغزى التوقيع الدلالي، وإن اصطناع القاعدة اللغوية لبعض قيود الانفعال بالقيم البلاغية ليس مركوزا في أولياتها، من منا لا يتضايق بخضوع الانفعال والحسّ والخيال والتزام هذه المرجعيات الروحية بقاعدة كون التشبية منبنيا على ألحاق ناقص بتامّ وإن معين الروح الذي هو الموئل والمآل في التحسيبات البلاغية مفطور على أن لا يتقيد بذلك وقد أثبتت جمالية البلاغة القرآنية ذلك حين هدمت الآية قواعد القياس العقلي استنادا إلى قوله تعالى (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)[1]، حيث تعلق الاستدلال بالغامض الوهمي بالغامض الأوهم، فلا الشياطين المقيس عليها محفوظة الشكل والهيئة في خزانة صور الأعرابي ولا شجرة الزقوم هي كذلك، والدلالة والصور والمعاني البلاغية المستطرفة تقوى توقيعاتها البلاغية إن استترت هذا التستّر، وغمضت هذا الغموض، وأبهمت هذا الإبهام، فالإحالات على الشك والظنّ والوهم هي من أقوى المرجعيات الروحية التي يشرئب إليها كل حسّ، ويتطلع إليها كلّ خيال، وقد تحامت الآيتان السالفتا الذكر كل أدوات الدلّ والمبالغة في التصوير (وعلى أنّه أنّه لو كان شيء أبلغ في الزّجر من ذلك لذكر ...)[2]،

(1)- الصافات : 65/64.

(2)- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: يحي الشامي، المجلد: 7/6/5/4، ط:3، دار ومكتبة الهلال 1990، ص:427.

والذي يعاين الأسرار المنهجية والإبداعية المتضمّنها تفكير الجاحظ البلاغي، سيقف على حقيقة التوافق النّسقيّ بينه وبين تفكير عبد الملك مرتاض البلاغيّ، يشاكله ويدانية في تتلمذ ملؤه الإخلاص، استطاع بفضله أستاذنا تجديد نظرية البلاغة العربية ما فرّط في ما يستلزمه مشروعه من شيء، ولا هو أقحم عليها مستنكرا شاذّا لا تتقبله.

وتحصيلا لمقامات الجهود المبذولة في تجديد التفكير البلاغي العربيّ فقد طفق عبد الملك مرتاض يتهضّم المناهج والنظريات الغربية مستوعبا لها ومضيفا إليها، ذلل ذلك له إتقانه لسانهم، وحقيقة فإننا لو تأملنا جملة المعارف التي يتصايح بعض النقاد العرب منبهرين من فرط فلسفتها الإغرابية والسيميائية مثلها في مثل دابة الأرض تقرض كل دعامة وتنخر كلّ أصالة، فإن أستاذنا لا يستطير عُجبا حين يعرّج عليها في تفكيره البلاغي، بل ما يفتأ يصرفها بلباقة وحدة ذكاء فيوصلها بأصولها البلاغية المستطرفة، وهو لا يفتقر إلى المسوغات والمبررات التي توثق تلك الحميمية الإنسانية، والفطرة الربانية الصافية، ولتدعيم هذا التوجه المتأبي على هيمنة المناهج فقد صادفناه قائلا باللاّمنهج، أو على الأقل إفساح المجال لتلاقحها جميعا[1]، ولعله بتخطيه حدود التنهيج، وتفضيله الحومان حرا طليقا في فضاءات الإبداع كلها يكون قد تخيّر التفكير الجمالي ذي الصلة الحميمة بالإبداع، ووفاق هذا فإن أساس المبدأ البلاغي يتشظّى إلى معارف جزئية متكاملة يغدو معها التسبيه تشبيهات والاستعارة استعارات، وتنزاح الدلالات الأصلية إلى دلالات تفريعية تتجاوز الأحكام التقعيدية المسلم بها عادة.

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض، أ، ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة : أين لبلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، ص: 29/28.

ولا يعدم القارئ لسيرة عبد الملك مرتاض الإبداعية أن يقف على روح التحفز المشبعة بالموثبات التي تتملص أبدا من معطيات الراهن، لذلك فإن كل مشروع تفكير يتحوّل إلى بفضل بثورة الإبداع هذه إلى مشروع إبداء متسلح بالافتراض والتوقع وكذلك شأن كل رؤية إبداعية منعتقة من إسار التقليد والتكريس لذلك فإن عبد الملك مرتاض يؤطر سعيه البحثي قائلا في هذا المضمار : (ولا كان النص ثمرة طبيعية لحركة الكتابة وعطائها اللغويّ، وتجليها النسجيّ، فقد كان لا مناص من أن نختصّه بهذه الوقفة الطويلة لنناقش ماهيته، ثمّ نتوقف طويلا لدى التعريفات التي عرّف بها في النظريات الغربية، ونسعى إلى الخروج من كل ذلك بنظر خاصّ)[1].

إن الذي يعنينا من هذا التنهيج المفعم بشجاعة الرأي، والذي سعينا للإبانة عنه في تفكير عبد الملك مرتاض البلاغي من خلال رصد التحولات المنهجية التي يقتضيها كل إجراء نقدي عادة هو ذلك التحفز والتوثب المتواصل خلال تجلياته المعرفية كلها، لذلك صادفناه يبرع كالمنقطع النظير في تهضّم النظرية النقدية الأدبية الغربية قبل أن تغدو مستوعبة في صميم منهجه النقدي الأدبي العربي الحديث، يعرّبها اصطلاحا وتقعيدا وتفكيرا حتى تشامّ ما يشاكلها في حيز البلاغة العربية، وليس ذلك إلاّ لأنهما أي التفكير البلاغي الغربي والتفكير البلاغي الغربي مندمجان في المشرب الفطري الإنساني الواحد، وليس ذلك إلاّ لكون مفكرنا عادة ما يؤول في جميع اجتهاداته النقدية الأدبية إلى التفاعل مع الأصول الفنية الجمالية لا يمنعه من ذلك تفاوت مشاربها وتنوع بيئاتها واختلاف هوياتها الاجتماعية، يستجليها من مكامنها التراثية العربية بلا

(1)- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، ص:24.

احتشام أمام معارض أفكار الأمم الأخرى قديمها وحديثها، ثمّ يعمد إلى تشريحها وتشخيصها حتى تتبين جرثومتها، وبالتساند إلى هذا الحسّ المتمكن من تفكير عبد الملك مرتاض البلاغيّ ذي النزعة الإنسانية البارزة، فقد اتّفق لديه أن يرى كل طارئ في نظرية البلاغة الغربية متضمّن بالبديهة في التراث البلاغي العربيّ، لا يكاد يشذّ عنه في شيء[1] مهما تناءت به الأسباب، ويبدو أن عبد الملك مرتاض قد أيقن فائقا غيره أن اللغة العربية قد استوعبت كل شروط الإبداع الإنساني، بما ازدانت به من جمال الصوت، ورشاقة اللسان، وأناقة الاستماع، لذلك نرى مسعى الأستاذ واضحا إلى استرداد القيم البلاغية الحقة التي انبجست من أجلها النزوحات التوقيعية الأولى إذ ثمة فارق بيّن بين القاعدة اللغوية والسلوك الإبداعي المصدّق للسلوك الفطري في تعاطيها، ونحسب أن البلاغيين منذ كانت السماوات والأراضين قد اختلفوا إزاء هذين المسلكين، مسلك الإبداع والتجديد، ومسلك التقعيد والتكريس والتنميط والإحصاء، وهو (ما أبعد الفنّ البلاغيّ عن جوهر الأدب وروحه، وأضعف الإحساس بالإيقاع...)[2]، حتى كأنّ الله باعث بهؤلاء العلماء على رؤوس الأجيال يجددون لهم ما بلي من علومهم ورثّ، يرجعون بها إلى مبادئها الفطرية الصافية بعد أن طغى عليها التّمحّل والتمحك.

يشتدّ أستاذنا في احتياش علوم الأدب واللغة، فما بقي أمامه هاجس إلاّ داخل نظانّه، يستثمر السيرة البحثية القلقة المتحفزة إلى الاستزادة في كل حين حتى كأنه عنى ذاته حين وصف القارئ بالإنسان العنود المتطلع المتعطّش

(1)- ينظر، نفسه، 7.

(2)- ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغيّ في العصر العباسيّ، ط:1، دار القلم حلب سورية 1997، ص: 86.

أبدا إلى التطوّر والعيش الأمثل[1]، لذلك وحرصا منه على توثيق تاريخ الأدبية الجزائرية، فقد طفق أستاذنا يؤلف في معجمية أعلام شعراء الجزائر حين انبرى يؤلف معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين مستعينا بأفضال ما خبره من تفهم بلاغة الشعرية العربية قديمها وحديثها لا يشذّ عنه في مضمارها شيء مما يقال، موظفا صلاته ومعايناته لشخوصهم وهم تلامذة تارة وزملاء أخرى، تراه يستولي على أمد الخوض في كل ظاهرة إبداعية خاصة اللغويات منها، وعلى الأخص تمحيصه المنهجي اللبق في المعجمية والدلالة، يتفوّق في إرجاعها إلى أصولها العربية حتى كأنه قمشها لحينها من واقع بيئتها الأعرابية القديمة، يدقق ويفتّق آخذا على الباحثين افتقارهم إلى الإلمام بالتراث العربي في البلاغة والنحو، لذلك يتجلى لنا جانب من نفسية عبد الملك مرتاض شديد المراس حين ما يفتأ يزدري كتاباتهم في موضوع الشعرية، متفوقا على كلهم حتى كأنه الشاعر وحده دون العالمين، وعبد الملك مرتاض في ذلك شبيه عمله بما كان يأتيه النابغة في أسواق الشعر العربي يجيز ويردّ معزّزا كل رأي بما أوتيه من تفهم للشعرية عميق فقد غدا يبوّئ أعلام الشعرية العربية المعاصرين مراتبهم في الإبداع غير محتشم في وسم كل منهم بخصائصه اللغوية والإيقاعية غير مجامل ولا مهادن، وقد رأيناه يقدم لمعجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين محتذيا نسق مؤرخي الشعرية العرب القدامي من الذين ألفوا في معجمية الشعراء على شاكلة ابن سلام الجمحي شاهدا بأنه لم يألو جهدا في جمع المادة والشقاء في الاتصال بأصحابها مكاتبة ومهاتفة ومحاضرة وكأنه يخرج إلى البادية العربية يفلي فجاجها يستضيء بكل نار خيمة بلاغة تتراءى له في صحاري الكلام العربي

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض: أ، ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ص: 9.

الأصيل[1]، ولدى تدبر تشاكل المنهج بالسيرة لدي عبد الملك مرتاض يتبين للمتفكّر أن علم الأستاذ متوافق مع التوصيفات ذاتها التي ألم بها أبو حيان التوحيديّ[2] بروح الإبداع لدى الجاحظ حين قال: ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كلّ أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، ومغالق قلما ينفكّ منها واحد) .

وإذا فإن للمسرودات السالفة الذكر متمثلة في ما يؤلف بين عناصر الإبداع والفطنة والبلوغ جميعها مركوزة في طبع عبد الملك مرتاض، فقد وهبته العصامية مقومات الإبداع الحرّ المتواصل السموّ إلى كل مستطرف جدبد، ولو تأملنا الشهادة إياها ألفيناها دالة على الوشائج السيرية ذاتها التي المتكاملة في تشكيل مذهب الجاحظ الإبداعي ألفيناها حاضرة بدات الفاعلية والتنوع في سيرة عبد الملك مرتاض الأدبية لا تتخلف عنها في شيء، فقد أفاد عبد الملك مرتاض في مسلكه التعليمي في الكتاتيب والزوايا والتعليم الحرّ الأخرى تفادي أساليب التلقين المنهجي التي ترسم في نفوس المتعلمين من خلال ما يتلقاها المتعلمون في مضامين مناهج التعليم الرسمية.

وتوسما لهذه الروح الإبداعية التي طبعت مذهب عبد الملك مرتاض الإبداعية فقد رأيناه يختص متفوقا على غيره من الباحثين العرب بغزازة الاستنباط والتأويل والتحليل، ينطلق من الجزء اليسير لتحصيل الفوائد المرعفية الوارفة الدلالات والواسعة المضامين، ولعل هذا المنهج هو الذي اعتمده

---

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 2007، ص: 17/16.

(2)- الإمتاع والمؤانسة، ج:1، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، ص: 66.

الباحث في تريح أين ليلاي أينها لمحمد العيد آل خليفة، فعلى الرغم من محدودية النص الشعري العمودي غير الفسيح فإن عبد الملك مرتاض يوغل في الاستنباط والتأويل والإسقاط والتشريح حتى يخرج الخطاب من طوره المحدود إلى عوالم قرائية واسعة يزيد الخطاب قيما قرائية هي من إبداع القارئ مرتاض، وعلى ذات النهج ونفس السياق تصدى لقصيدة الأشجان اليمينة لشاعرها عبد العزيز المقالح فوفاها فوق حقها تحليلا وتشريحا وتأويلا، والمنهج المعتمد في الدراستين واحد لمن أراد الاستيقان بتمحور منهج عبد الملك مرتاض النقدية حول النشاط المعرفي المتساند إلى المرجعيات الثقافية والتعليمية الحرة التي ذكرناها آنفا.

ولعلّ الامتياز المنهجي الذي يسم روح الإبداع لدي عبد الملك مرتاض هو إطاحته بالشروط التشكيلية في حيز الإبداع الشعري، فقد لاءم انطلاقا من هذا التفهّم بين القصيدة العربية التراثية وبين كل مستجدات التحديث، وقد ساعده ذوقه الثابت على تمحيص الظاهرة الشعرية فلم يقرنها بالشروط الشكلية القاهرة المجحفة، فتقبل قصيدة الشعر الحر أي شعر التفعيلة، لأن الكلمة العذبة المؤثرة تفوق كل تشرنق، وتتجاوز كل المعايير العقلية مغلبا المرجعية الإيقاعية التي تتوحد فيها كل أساليب التعبير اللغوي الجميل، فالبهاء اللساني السماعي هو المحك الذي تؤول إليه الذائقة في تقييم التراكيب اللغوية على اختلاف مظاهرها التشكيلية .[1]

ما كان لعبد الملك مرتاض أن يتسم منهجه النقدي بالتوثب وروح التجاوز لولا إقراره المبدئيّ بخلط المبادئ وانحلالها، حتى أضحى لا يقرب

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعريّ، دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، ص: 35/34.

قصيدة إلاّ أنشأ بدءا منها ما يكافئها من المناهج والأدوات، فليس ثمة منهج نقدي كامل متكامل في نظره قوامه التشكيك وفتح باب النقاش على مصراعيه[1].

ونحسب أن ثقافة عبد الملك مرتاض اللغوية عامة والبلاغية خاصة متّصلة أسباب نبوغه فيها بطبيعة تلوّنات سيرية المعرفية المميزة المتصلة يتوقد البديهة التي تزين أساليبه التعبيرية ذات التوقيعات الإطرافية المستحلاة في قلوب سامعيه قبل القارئين له، وعبد الملك مرتاض في ذلك كله مضاه لما نطالعه في كتب البلاغيين العرب القدامى وبالأخص الأجواء الدلالية الغامرة أساليبهم التعبيرية بما يقارب الشعرية على أكمل وجوه قيمها التوقيعية فاللغتان، لغة البلاغيين العرب القدامى ولغة عبد الملك مرتاض كلتاهما ناهوت تلك الغاية من حيث كانت تستقي معينها الفني الجمالي من قوة العارضة التي رزقوها، والتي ألهمتهم طبيعة التفطن لها، وتلك هي المزايا الإبداعية التي انتظمت فصولها تحصيل معارف عبد الملك مرتاض اللغوية، وهو، بفضل ما أوتي من النباهة والرياضة والسياسة والتلطف، يكون قد تملّك المؤهلات النفسية والانفعالية العاملة على تكامل الخصال، وتناتج الأفكار حتى أمده الاستواء على عرش الإبداع في مضمارها بسبل التغلغل إلى أكناه أكوان الأشياء وقد تخطي حدود التفكير النقدي إلى ما يمكن تسميته النزوع الفلسفي، وهو مستوى أرقى من كل المستويات التي يصطرع فيها الباحثون اللغويّون المبتدئون ممن لم يقو عودهم، ولم تتّئد تجاربهم.

(1)- ينظر، عبد الملك مرتاض، أ، ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، لمحمد العيد، ص: 7/6.

ولعلّ الذين عرفوا هذا الإنسان حقّ المعرفة، وسنحت لهم أسباب المحاضرة معاينة تمهره في توقيع المعاني والأفكار، والإحاطة بتوصيف الأحوال قد استطاعوا أن يقفوا على ما ينمنم سلوكاته الثقافية ويوشّي فطنه اللسانية إلى أن أكسبته من فضل البلاغات ما كان يستطير به بين الأقران من النكتة وحسن التصرف في الخبر، وإتقان توزين فصول الكلام، حتى يريك عيون الأدبية حاضرة في كل نبسة لسان يجليها بديعة في كل سلوك لغوي ولو كان على سبيل ردّ التحيات أو السؤال عن مألوف أحداث الحياة اليومية، يتفنّن في رواية الأخبار، يبالغ تارة، ويصور أخرى، ويكني إلغازا في حضور الذين يلاحقونه بالمساءلة والاستفسار والبحث عن مستجدات الدرس الجامعي، يعرف كيف يتصرف في شجون الحديث فيضيف من عندياته ما يراه لا ئقا بتوقيع النكتة، وتزيين مقام القول، وربما تجاوز ما يراه مستثقلا على عقول مستمعيه عبءا على قلوبهم وأحاسيسهم، وهو للكلام القيم الثمين أسرع استنباطا يؤلف كيف يشاء، وللعبارة الشعرية الجميلة الحرة أجلب، لا يتعسر عليه استدعاؤها، وشيخنا الأستاذ فوق كل الذي مهدنا به للمقالة عنه تمهيدا، مولع مثل غيره من العلماء والفنانين في الحكاية عن أعاجيب فصول سيرته يتّخذ منها المناسبات العجاب، فيغدو هو ذاته بطلا لمجمل الأحداث والحكايات التي يتحرى التفنّن في سردها، تلاءمت كل تلك الخصال لدى عبد الملك مرتاض حتى أحلته من مصاف الإبداع البلاغي حتى صارت عباراته روحا يجيش بها صدره لينقذف على لسانه[1] طيبا سلسا لا ينقصه من معايير

(1)- ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، ط:3 مؤسسة الخانجي بالقاهرة، ص:92.

الشعر إلاّ الوزن العروضي والقافية، وهي الجوانب التي يغطي على نقصانها في المقالة المرتاضية الاتّزان والانسجام وحسن التوقيع والتوالي والإتباع.

وقد كنا نجلس من أستاذنا مجالس لطلب العلم خلال سنوات التدرج في معهد اللغة العربية بجامعة السانية بمدينة وهران، وكان يبدو لنا عزيز الظهور، فريد التجلّي، الوحيد الذي نرضى من بين أساتذة تلك الفترة من الدراسة أن يخرج بنا من صرامة الدرس، وصرامة التحفّظ التي كانت تقهر المبدعين من الطلبة، ليسيح بنا في ملكوت رواية الخبر السيري ومغامرات ترحلاته بين أماكن متعدّدة من الأرض العربية والعجمية، وكانت الفائدة التي جنيناها من تسمّعنا لفصول سيرته الخارقة أن قوي بفضل تلك السيرة أن يؤهلنا إلى سلوك ذات سيرته حتى ظللنا بفضل الشغف الذي حل بنا من فرط تأملها نتمثلها لبلوغ ما بلغ من الشأو، والتفوق مثله في اللغة العربية مقتبسين منه تارة، وحافظين من أعلامه الذين تثقف على مطالعة آثارهم تارة أخرى.

وإن أقرب مولج لمداخلة روح التجاوز لدى عبد الملك مرتاض نقدرها في قوة الشجاعة المعرفية، وابتداع المناهج، واقتراح الجديد، وانتقاد القديم الذي نقضته أسباب الحياة، ونقدر أن البلاغة هي المدخل الرصين الذي يحتم على قارئ الأستاذ عبد الملك مرتاض أن ينتبه إليه، ولأن تعليم عبد الملك مرتاض متناغم مع طبيعة السيرة الحياتية التي حييها فإننا سنحاول استلهام مقروئية معارفه اللغوية والبلاغية متواشجة مع ما انطبعت به نشاطاته النقدية الأدبية الشفويّة التي كنا شهدناها في محادثاته ومحاوراته لتلامذته وزملائه من الأساتذة الجامعيين.

هل يستطيع طلبة عبد الملك مرتاض أن يتجردوا من تلك الاحتفالية العارمة التي تسكنهم حين تهيج نفوسهم باسترجاع المناسبات الحياتية التي

لمسوها في شخصه حتى كأنه بأدبيته الغلابة يشغل حيزا من قلوبهم، وتهيج عواطف الانتصار له بشيء من العصبية، وكيف لهم أن يقووا على ذلك وهم يقفون على معالمه الفكرية والنقدية والإبداعية التي ملأت الأرض وشغلت الناس؟ نداخل فصل الكتابة عن خصوصيات مرتاض المنهجية في كتابه نظرية البلاغة وقد أحطنا ببعض ذلك علما نحسب أنه سيمدنا بالأدوات والمنهج والمعرفة القمينة جميعها بإسداء مزية الاعتراف بأستاذية الأستاذ حتى يكون ذلك رد بعض الفضل إلى أهليه.

ولعل أهم وازع يحرك عبد الملك مرتاض لرياضة النظر النقدي البلاغي وريادة التفكير في تجلياته الإبداعية هو تشبعه بطاقة التعليم العصامي، فقد ظلّ يحكي لطلبته المخلصين له أنه التقم الحرف العربيّ منذ صباه في الكتاتيب كدأب ما شاع من التعليم العائلي في مرحلة من مراحل الثقافة الجزائرية نقدرها خلال ما قبل الاستدمار الفرنسي، دل على ذلك ما رواه من أنه كان يلاحظ نعت الناس أبيه الذي كان يرافقه إلى سوق القرية بأنه من حزب الشعب الجزائري : P.P.A فيتلفظون بها باللسان الأعجمي، وكان لا يتبين ما يرمون إليه من أشارتهم تلك على حاله تلك من أيام الطفولة، وما أدرك غرضهم إلاّ لاحقا متفهما أن الموضوع أكبر مما رآه وهو صغير، ثمّ تنوعت أساليبي حياة الرجل وتقلب في متطلبات العيش حتى بلغت به أسباب الحياة أن عمل في مصنع لسيارات رونو، ولننظر كيف كان الرجل يجمع من كل هذه المحن ما يقوم به فصول حياته اللاّحقة، فقد تدرج في اكتساب أنوار العلم والمعرفة مكتنفة بطقوسها الشعبية، أتصورها تقترب مما عاناه كبار علماء الأدب العربي من أمثال أبي عثمان الجاحظ طه حسين والعقاد وأمثالهم، وقد تدرج خلال كل ذلك الشقاء متسلحا بتلك الروح الفلاذية، عبئ خلالها بحفظ القرآن الكريم الذي أسبغ عليه الكثير من الأفضال ليس أقلها تقويم اللسان العربي

الفصيح، وامتلاك ناصية اللغة العربية الفصيحة مضافا إليه تلك الحوافز والموثبات التي تجعل هذا الأديب الباحث متطلعا إلى اكتساب السبق والامتياز في ميدان النظر اللغوي.

وإن تنبيهنا على الخصوصية الحياتية لا يقل شأنا لدى بحثنا عن عوامل النبوغ والامتياز والتمهّر، فقد سلحته تلك الروح العصامية بشجاعة الانطباع، وسياسة المستعصي، ورياضة المستطرف، ومراودة العزيز من الأمور، وقد يطمئن الباحث في سيرة عبد الملك مرتاض النقدية حين يلفي هذا المنهج الخالط بين السيرة والبحث العلمي واقعا في صميم تجليات المرعفة البلاغية العربية التراثية، فهذا ابن جنّي يقرّ بعامل التشجع في الانقضاض على مكامن العربية، فيسديها إلى بلاغة الشعر، فيقول : وليس الكلام شعرا فتحتمل له جرأة الخطاب[1]، ومع أن عبد الملك مرتاض لا يقول شعرا إلاّ أنه امتلك أساليب تفهّم جمالياته وفنياته، أدت به غواية الإتحاف إلى أن يدهش قارئيه في بعض تجلياته بما يبثه خلال كتاباته من أساليب شعرية تعبق لغتها بأريج البلاغة العطرة، وقد نقرا لديه هذا الامتياز البلاغي على أنه فطنة بلاغية تتشخص في شكل مواقف توقيعية يغذيها ما يلفها من التفاضل والإطناب وبذل أسباب التفريعات التوضحية عندما يتعلق الأمر بتصوير موقف أو الإلمام بتشخيص حال.

وإن مما تتميز به روح عبد الملك مرتاض الإبداعية، منظورا إليه من زاوية التجاوز والتوثّب إلى فوت المحاصيل اللغوية القارة في أوضاعها، الراكدة في دلالاتها، هو طبعه المشحون أبدا بروح الانتقاد الحادّ والمشاكسة القاهرة فقد رأيناه في مدرج الإبراهيمي كيف صادم زميله محمد مصايف خلال مناقسة إحدى

(1)- ينظر، الخصائص، ج: 2، تحقيق: محمد علي النجار، ط: 3 عالم الكتب بيروت لبنان 1983، ص: 188.

الأطروحات الجامعية، ثم عدنا لنراها في مناسبة أخرى يبكيه صادقا متحسّسا قهر الفراغ بعد فقد الرجالات، وهو لا يهدم إلاّ ليبني يطابق ما يتمتع به مشايخ البلاغة العربية التراثيين مجسدين في الروح الانتقادية التي تخللت آراء عبد القاهر الجرجاني في ملاحظاته البلاغية على من سبقوه أو جايلوه من اللغويين، وقد وازنا بين موقفين منارين بين رأيي أبي يعقوب السكاكي ثم رأي عبد الملك مرتاض في تقييم النظرية النحوية لدي سيبويه قال فيها السكاكي[1] عن الكتاب : (كتاب لا نظير له في فنّه ولا غنى لامرئ في أنواع العلوم عنه لا سيما في الإسلامية فإنه فيها أساس..)، وأما عبد الملك مرتاض فواقع من ذلك خلافه، يتساند إلى شجاعة الرأي فيقول معقبا على رأي لسيبويه في معايير النحوية : (والحق أن كلام سيبويه في هذا النص لا يخلو في، رأينا، من بعض الاضطراب، وإنا لا نسلم بسلامة كلامه هذا إلاّ إذا استحال إلى نحويّ ودلاليّ معا ...)[2] ولعل في حكم عبد الملك مرتاض ما يدلّ على أفضال مستجدات العلوم اللغوية الجديدة، مثلما عني هو علم الدلالة، ولعلّ ذاك الذي عدمه رأس سيبويه حتى أتى لا يلبي منهج الدرس اللغوي اليوم عندنا، وإن اتّسام علم سيبويه بالعموميات اللغوية لمحتاج إلى من يكمله من أبناء العربية المحدثين، ومرتاض هو أحد أولئك.

وهكذا فإن مبدأ شجاعة الرأي في حيز التفكير البلاغي متأصل في تفكير عبد الملك مرتاض يتقوى بما اجتمع لديه من الفكر والمنهج، يلم شتات القديم إلى الحديث فيكمله، ويقرن الإبداع مع التحفظ فيعزّزه.

ونظرا لتمتع فكر عبد الملك مرتاض بروح التجاوز، وعدم الاقتناع بالشائع المتعارف عليه، فهو تراه يكتب ويمحو، وينسج السداة ويفكّكها، يقول المصطلح

---

(1)- مفتاح العلوم، دار المكتبة العلمية بيروت لبنان، ص: 118.

(2)- عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، متابعة لجماليات الأسلبة : إرسالا واستقبالا، ط:2 دار القدس العربيّ، وهران الجزائر 2010، ص: 40.

ويتجاوزه، ويرى الرأي ويفوته بما ينشئ من القناعات النظرية والتطبيقية، يجعل القارئ يقتنع بكل زيادة يراها، ويلفه العجب من كل مستجد يبتغيه، وتبعا لهذا التشبع بروح التجاوز فإن عبد الملك مرتاض يعوّل منذ البداية في كل مؤلفاته خاصة منها البلاغية بأنه ينتصر لمنهج الإبداع على طرائق التقليد جميعها، والبلاغة حسب تصوره منبن النظر فيها على شعبتين، الشعبة الأولى : تكريسية تقليدية أماتت فن البلاغة بعد أن استوى له منهجه الإبداعي، حتى كأن العقل الذي أوجد المعايير النحوية همّ بتأميم نشاطها، وإفساد كلّ خمط من خلالها، وهو ينتصر لحرية الرأي، وطلاقة الانفعال بهواجسها المتشبعة بروح الفطرة الإنسانية، وقد استوفى منهج التجاوز باستعراضه أعلام البلاغة متبرما من الذين قرنوا الوازع البلاغي بالوازع النحوي، مثلما ارتأى ذلك لدى أبي يعقوب السكاكي، وإذا ما ولى وجهه جهة الرعيل المغاير لوجهة السكاكي رأى في الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرارا البلاغة البغية التي ينشدها، وقد بلغ بأستاذنا الحال أن حدثنا أنه متواصل هواجس البحث دائمها تراوده في كل حين، مثلما حكى لنا انه تنبه إلى مصطلح الانتصاص وهو سائق سيارته، وقد طفق إثر ذلك الكشف يهلل ويكبر تغمره السعادة، ويؤّجج روحه الاكتشاف، وفي ذلك ما هو دال على مدى وفاء الشيخ لمحاذبة التفكير والبحث، بالقدر الذي يحيلنا على استرجاع قصة غبطة نيوتن باكتشاف قانون الجاذبية صدفة، فلنتأمل هذه الطبيعة المتمكنة من نفسية عبد الملك مرتاض، واضعين إياها في سياق التوأمة بين الإبداعين : الإبداع العلمي والإبداع الأدبي فهما معا يؤولان إلى طبيعة الفطرة الإنسانية الواحدة.

ولقد ساعد امتلاك عبد الملك مرتاض للسان الفرنسيّ على مطالعة علوم اللسان الأجنبي، وسهل عليه إمكان المقارنة بين الألسنة وهو الجانب الذي لا مناص منه في استيفاء شروط البحث اللغوي الحديث، ولقد أسدى

إليه تتلمذه على يد الستشرق جاك بارك ذي الأصول البيئية والثقافية الجزائرية التيهرتية النفع المنقطع النظير، أهّله ذلك مبدئيا إلى الإلمام بلغة البحث الأكاديمي في الجامعة الفرنسية، والاضطلاع بمقومات التفكير النقدي لدى أعلامه المرموقين، غير أن ذلك التأثر لم يجتذب عبد الملك مرتاض إلى الانقطاع عن تشبعه بالأصول التراثية العربية الأصيلة متجسدة في المعجمية القرآنية بكل توابعها الأسلوبية والفقهية، وهو بالتساند إلى تلك الخصال المتمكنة من طبيعته تخالف البلاغيين العرب المحدثين خاصة المغاربة منهم، غلبت البلاغة الترجمية على تفكيرهم ومنهاجهم ليسلم هو من تلك الآفات، مع تباين في الأقلام والألسنة، فقد ظلت لغة عبد الملك مرتاض قوية تسلس سلاسة الأصول، وأبية مستعصية على غير المتمكنين، تقرأ له فتستفيط، وتحشو رأسك في كتاباتهم لا يستبين من هدرها شيء ذو قيمة، يطير قريبا فيقع بعيد، ويطيرون هم بملء الأجنحة فلا يتجاوزن مرمى القدمين.